ثورة على الأخلاق

للأستاذ علي صرطاوي

إلى الأخ محمود بواسطة الأستاذ الزيات

قرأ أصدقاؤك والمعجبون بأدبك في الأقطار الشقيقة شكواك البليغة في عدد الرسالة (٢٢٩)، فعتبوا عليك، وأسفوا أن تمرّ بسمائك سحابة صيف من مآسي الحياة في ظرف من الظروف الأليمة التي يطيش فيها حلم الحليم، فتحجب عن بصرك ذلك القبس الإلهيّ الذي كان يحبّبُ إليك أن تحترق كالشمعة لتنير الطريق إلى الذين لا يعرفون الفضيلة في الدنيا؛ وأن تتحمل كل ما في الألم من مرارة وما في الاضطهاد من معنى، في سبيل الأخلاق الفاضلة والذود عنها والدفاع عن حرمتها، فتنقلب في طرفة عين إلى خصم لدود يطعنها تلك الطعنات القاتلة، فكنت كالذي أوشك أن يتم جداراً لاق النكد في بنائه، فانقلب إليه يهدمه إلى وجه الأرض لأن حجراً وقع عليه

لا يجادلك فيما ذهبت إليه في شكواك إنسانٌ في الدنيا، ولا يوافقك على الأسباب التي ادعيتها علّة النجاح من له دين وتفكير إلا إذا كنت تريد أن يتدهور البشر إلى مستوى الحيوانات حيث يعيشون للطعام والشراب، وأن يتلاشى ذلك التراث الإنساني الثمين الذي ورثته البشرية عن الأنبياء والمصلحين.

إن نجاح التاجر الذي يغش ويسرق، والموظف الذي يتلون حسب الظروف، والظالم الذي لا تعرف الرحمة طريقاً إلى قلبه، لا يقوم دليلاً على ما ذهبت إليه، ولا شأن للأخلاق فيه، إذ ليس ذنب الماء العذب أن يزعم مريض أنه كريه المذاق، ولا الشمس المشرقة أن يجادل في رؤيتها أعمى. فالذنب ياسيدي الكريم هو ذنب المجتمع المريض الذي يُسَمّي الأشياء بغير أسمائها، فيرى الجبل شجرة، والحجرة كتاباً، والجمرة تمرة. ولو كان لنا مجتمع تعيش فيه الصراحة والجرأة الأدبية ويشرق عليه نور الخلق الفاضل والتربية العملية الدينية الصحيحة، لتضوّر أمثال هؤلاء جوعاً فيه

وزاع الدكتور عزام طعنك في الأخلاق على النحو الذي قرأه الناس جميعاً، فأسرع يكتب إلى صاحب الرسالة كلمته البليغة لتصل إليك في العدد (٢٣٠) وظن القراء أن فيما أورده الدكتور من الآراء الصائبة ما يكفي لإرجاعك إلى الحق، والرجوع إليه فضيلة؛ وانتظروا أن يقرأوا ذلك في العدد (٢٣١) وإذا بصديقك الزيات يقول إن المجلس الذي أبلغك فيه رأي الدكتور، وكان حافلا بغيرك من رجال العلم والدين، كانوا لك وعليه، وأنك ظللت صامتاً ولم تحر جواباً

لقد أعجبني صمتك، لأن السكوت دليل على التسليم، ولكني لم أرضَ أن يزعم أن مجلسك كان حافلاً برجال العلم والأدب والدين، ويقول على لسانهم بأن السبيل (القاصدة إذن أن نطلبَ لهذه الحال فيما يوائم بين طموح الناس وكرامة الأخلاق وسلامة المجتمع، وليس هناك إلا وسيلة من وسيلتين: إما أن نصد الناس جميعاً عن هذه الطرق المتعددة ونقصرهم على هذه الطريق الواحدة بقوة الأديان والسلطان والتربية، وذلك ما عناه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: «عليكم بالجادّة ودعوا البنيّات» وإما أن نعيد النظر في قانون الأخلاق فنعمل فيه ما لا يرافُ تقلب العصر وتطور المجتمع. فأما الوسيلة الأولى فقد سجل الماضي ودلل الحاضر على أنها خيال نبيل لا يقع في الإمكان وحلم جميل لا تقوم عليه يقظة، وتعليل ذلك لا يغرب عنك فلا حاجة إلى تقريره. وأما الوسيلة الأخرى فهي على ما يرون مظنة التوفيق في الإصلاح الجديد)

يزعم أصدقاؤك أن إلزام الناس طريق الفضائل عن طريق الأديان والسلطان والتربية (خيال نبيل لا يقع في الإمكان، وحلم جميل لا تقوم عليه يقظة) ويؤكدون أن الماضي قد سجل ذلك، وأن الحاضر قد دلّل عليه...

أما السلطان فأوافقهم على ذلك إذ:

لا ترجع الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

وأما الأديان، فأي ماض قد سجل ذلك؟ هل قرأ أصدقاؤك التاريخ العربي قبل الإسلام وبعده؟ من هم أولئك الذين كانوا يأكلون الدم والميتة، ويئدون البنات، ويتزوج العشرة منهم امرأة واحدة؟ ومن هم أولئك الذين صهرتهم حرارة الدين فأخرجت منهم أبا بكر وعمر، ووطئت خيولهم الصين وسهول

اللوار ، وملأوا الدنيا والتاريخ عدلا ، وخاطب خليفتهم فى بغداد السماء بأن تمطر أنى تشاء فالخراج لهم ؟

إذا تعلم أفراد المجتمع الدين تعلماً عملياً صحيحاً ، وساروا على صراطه المستقيم ، فمسير أن يعيش بين أفراده مثل من ذكرهم صديقك الزيات . فعلة العلل أننا لا نعرف الناحية العملية من الدين ... وهـذا ما كان سبباً فى تهكم أحد رؤساء الجامعات الأروبية على دروس الأخلاق النظرية التى وجدها فى أحد برامج بعض المدارس العربية العالية ... إذ قال بأن الشرقيين لا يزالون فى الضلال يعمهون حين يظنون أن فى المستطاع تكوين الخلق الفاضل بعيداً عن الناحية العملية . وأما الحاضر الذى دلل على ضعف الدين ، فهو حاضر لا يمت إلى الدين بشئ

والإصلاح الجديد الذى يراه أصدقاؤك يجلب على المجتمع الدمار والبؤس والفوضى التى يئن تحتها المجتمع الأوربي فى مظاهر مدنية النار والحديد

ويرى أصدقاؤك فى سلف الانجليزى المزة ، وفى طموح الايطالى الرجولة ، وفى طمع الفرنسى الحياة ، وفى صراحة الألمانى الهيبة ، وفى استقلال الأمريكى الفوز ، ويرون فى قناعة العربى الاهمال ، وفى زهده الحرمان ، وفى مدارانه الذل ، وفى توكله العجز . ولست أظنهم ينصفون الحقيقة فى هذا الرأى ، فقياس الفضيلة هو مقدار الناحية العملية الصالحة منها ، وحسب أصدقائك أن يقارنوا بين فضائل من ذكروا ، وبين فضائل العربى وهو قريب من عهد الرسالة ، وهى منتزعة من صميم الدين ، والتى لاتمت بصلة إلى الأسماء التى تطلق عليها الآن ، وهو على أبواب مدينة حمص حينما هاجمها الروم للمرة الثانية ، فتدفع تلك الفضائل العربى أن يعيد لأهل المدينة الجزية التى أخذها منهم ، فيرفضون أخذها ويدفعون الروم بكل ما يملكون . والأمثلة كثيرة ، وثقافتك الواسعة وعروبتك الصادقة فى غير ما حاجة إلى إقامة دليل

وأما الربا فيريدون ألا يظل فى عصر الاقتصاد رذيلة ، وحجتهم أن الغرب لم يستعبد الشرق إلا عن طريق بنوكه ، وأن ربح الأموال التى كانت تضيع على المسلمين فى البنوك ، لو صرفت على طرق الاصلاح ووجوه البر لما بقى أجنبى فى أرضهم ولما ظل تحت سمائهم فقير . والواقع لا يدل على ذلك أبداً ، فلقد حرم الدين الربا لحكمة لا نستطيع بعقولنا المادية المحدودة إدراكها . ويجب أن يبقى كذلك عملاً بأوامر الدين . وأما استعباد الشرق عن طريق البنوك ، فمسئلة فيها نظر وليست قضية مسلمة ، ودليل ذلك أن الانجليز كانوا يطمعون فى مصر منذ سنة ١٨٤٥ . ويقرأ ذلك من يشاء فى رحلة الاسكندر وليم كنج لاك Alexander William King Lake فى بلاد الشرق الأدنى فى السنة المذكورة التى سماها (يوثين) Eothen ، حيث تنبأ وهو أمام أبى الهول باحتلالهم مصر قبل أن تشق قناة السويس . وأما طرق الاصلاح ووجوه البر ، فلو صرفت عليها الزكاة التى فرضها الدين لما بقى فقير بين المسلمين

وبعد فسيظل الخلق الفاضل عدة النجاح ما دام هنالك دين فى الدنيا والسلام عليك .

« جبين »

على صرطاوى

لابن منظور الافريقى المصرى

يشرف على تصحيحه ومراجعته اللغوى الكبير

الأستاذ الشيخ مصطفى عناني بك

المفتش الأول للعلوم العربية بالأزهر والمعاهد الدينية

تم منه ثلاثة أجزاء وسيظهر الرابع قريباً ويدفع ثمنه مقدماً ١٠ قروش صاغاً وثمن كل جزء يتم ١٥ قرشاً وأجرة البريد عن كل جزء ٢٠ مليماً

يطلب من مطبعة الصاوى بعطفة الشوشترى بملتقى شارعى الأزهر والخليج المصرى ، ومن مكتبة الهلباوى بشارع فاروق الأول ، ومن مكتب الأستاذ محمد حسنى الخطاط بميدان العتبة بمصر